

## الشيخ محمد بن عشيظ المجاجي و جهوده العلمية و التعليمية

إعداد: خاين محمد

كلية الآداب و اللغات بجامعة الشلف.

### تمهيد:

عرف حوض الشلف كغيره من مناطق الجزائر نبوغ الكثير من العلماء العاملين،الذين قدموا خدمات جليلة للثقافة العربية الإسلامية عبر العصور المتعاقبة،و خاصة خلال ليل الاستعمار البهيم،فقد أفنوا أعمارهم في تعليم أبناء العامة،و محاربة سياسة التجهيل التي مارستها السلطات الاستعمارية.و عندما يذكر حوض الشلف و ما زخر به من أعلام،يتجه القصد مباشرة إلى مجاجة التي مثلت مركز الإشعاع في الحوض،و امتد تأثيرها إلى كافة مناطق البلاد،فقد كانت مركز استقطاب علمي و حضاري،و قبله طالبي العلم من كل حدب و صوب،و يعود الفضل في ذلك إلى زاويتها التي أسسها الشيخ سيدي محمد بن علي أهلول المجاجي المتوفى سنة 1002هـ،الذي حدث بعلمه وورعه و كراماته الركبان، و وضعت حوله التصانيف و المؤلفات من مثل " ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة" للعربي المشرفي،كما تبارى الشعراء في الثناء على مجاجة و أعلامها الأجلاء، ومنهم عاشور الخنقي الهاملي الذي جمع فضائل أقطابها و مآثرهم في قصيدة سماها: طراز الديباجة المحمولة\* في محاسن مجاجة، نقتطع منها البيتين الأولين اللذين يقول فيهما:

الله أكبر كل الحسن في العرب\*\*\* و أكمل الحسن في أشرف النجب

لكن أكملهم حسنا و منقبة\*\*\* أشرف مجاجة في أشرف الحقب (1)

و قد توارث حفدته هذا الفضل، و حرصوا على أن يبقى متصلا فيهم إلى عهد قريب، و من بين هؤلاء الأعلام الذين تركوا بصماتهم في المنطقة،بما قدموه و ما تخرج على أيديهم من طلبة العلم في مسقط رأسه و حيثما حل و ارتحل الشيخ محمد بن عشيظ المجاجي.

### نسبه:

يرجع نسب المترجم له إلى الولي الصالح سيدي محمد بن علي أهلول، و هذا ما أثبتته أبو القاسم الحفناوي في مؤلفه المعروف بـ"تعريف الخلف برجال السلف" في الترجمة لهذا القطب،حيث أضاف بناء على مراسلة قيدها في المؤلف المذكور، وردت إليه من مفتي الأضنام(الشلف حاليا)

آنذاك محمد الوانوغوي، يقول فيها: "...و من ذرية سيدي احمد بن علي معاصرنا الوجيه و الأديب النبيه الآغا السيد بن آمنة أبو طيبة...و له ابن عم عالم محبوب في الناحية، كريم الطبع بشوش عليه رونق العلم و المعرفة، و هو الشيخ محمد بن عشيط"<sup>(2)</sup> .

فهو مَحْمَد بن أَحْمَد بن مُحَمَّد بن أَحْمَد الزروقي بن حاج هني بن السايح بن بن علي بن سيدي هني بن سيدي بن علي بن حسون بن عبد الرحمان بن سيدي احمد بن علي أهلول المجاجي<sup>(3)</sup> المدعو بن عشيط، ولد بمحاجة (التابعة إداريا إلى ولاية شلف حاليا) سنة 1841، من فرقة أولاد سيدي هني بن علي أبي الحسون بن عبد الرحمن<sup>(4)</sup>. و نلاحظ ههنا أن بعض الكتابات قد أثبتت اسمه على أنه محمد كما هو حال الحفناوي في تعريف الخلف، من باب أنه لا فرق بين التسميتين، فهما بمعنى واحد، و لكننا نرى أنه سمي بـ " احمد على اسم جده الأول سيدي احمد بن علي تبركا و تيمنا، و في بعض الكتابات كان يكتفى بابن عشيط، مثل ابن باديس، و نحن نرد ذلك إلى شهرة صاحب الاسم، و انتشاره في الأفاق فإذا ذكر باللقب اتجه المراد إليه دون سائر أفراد عائلته من العلماء الأفاضل.

#### تعليمه:

لم يشذ الشيخ عن أقرانه في طريقة التعليم المتبعة في عصره حيث أرسل إلى الكُتَّاب فآتم حفظ القرآن الكريم، ليبدأ بعدها رحلة التحصيل العلمي بحفظ المتون العلمية، كالأجرومية في النحو و الصرف لابن أحرور، و مختصر خليل في الفقه، و السلم المرونق في المنطق و البلاغة لعبد الرحمن الأخصري و البيقونية في مصطلح الحديث<sup>(5)</sup>. و كان ذلك على يد مجموعة من الشيوخ في المنطقة منهم الجيلالي بن المكّي، و محمد بن فلاق المجاجي، و الحاج محمد بن الزواوي المجاجي<sup>(6)</sup>.

سافر الشيخ بعدها إلى المغرب و بالضبط إلى فاس بغية التعمق في العلوم فدرس على يد محمد الوزاني المغربي و أبي عبد الله محمد المدني قنون(بقاف معقودة)، حيث أجزه هنالك، ليعود إلى مسقط رأسه محاجة، و يتصدى لمهمة التعليم في زاويتها المشهورة<sup>(7)</sup>. و بقي في فاس مدة أربع سنوات ونصف<sup>(8)</sup>، و قد ذكر بو عبد غلام الله أن الشيخ احمد بن عشيط قد درس في الأزهر<sup>(9)</sup>، و لكن الثابت لدينا أن دراسته كانت بجامع القرويين بفاس بالمغرب، و أنه قد تأثر بشيخه قنون المتوفى سنة 1885 تأثرا شديدا، حسب شهادة متواترة نقلها عن صاحب المخطوط الذي عدنا إليه عن عبد القادر البوجلالي عن الطيب المهاجي المتوفى سنة 1969<sup>(10)</sup>.

## مكانته العلمية و جهوده التعليمية:

تجمع الكتابات التي عدنا إليها في شأن الشيخ بن عشيظ على أنه كان يحظى بمكانة علمية عظيمة، و احترام كبير، و سنورد بعض النماذج التي تدلل على هذه المكانة، و منها مراسلة الشيخ محمد الوانوعي المشار إليها أعلاه، إذ نراه يسبغ عليه آيات التبجيل و يصرح بتفوقه في الفقه المالكي و في باقي العلوم السائدة في عصره، قائلًا: "صاحب محاضرة حسنة و فقه ظاهر، يستحضر نص خليل بسرعة، و له مشاركة في الفنون المعهودة ببر الجزائر، و اجتمعنا به مرارا فكنا نستأنس منه ما كان عليه من الهيئة الممتازة و يذكرنا الأوائل بأقواله و أفعاله" (11).

وما يجعلنا نطمئن إلى شهادة الوانوعي هذا، ما ذكره ابن باديس عن رحلته إلى العمالة الوهرانية، و بالتحديد حينما حط الرحال بمدينة الأصنام، و ذلك في أواخر سنة 1931، حيث يقول: "و عقدنا مجلس التذكير بساحة الجامع مساء بحضرة الشيخ المفتي (أي محمد الوانوعي) و العلامة الشيخ ابن عشيظ" (12).

و للبرهنة على قيمة شهادة الوانوعي السالفة الذكر في حق ابن عشيظ، لابد من التعريف بالشاهد، فهو كما ذكر ابن باديس من فضلاء الأصنام و مفتيها: "العالم الماجد الشيخ الوانوعي بن الشيخ بومزراق الزعيم المقراني المشهور، و الشيخ يمثل شهامة أسرته و كرمهم و همتهم إلى معارف أكسبته إياها الأسفار و التجارب و هو القائم بالخطبة و التدريس في جامعها" (13).

و مما يؤكد على مصداقية الشاهد و صدقية الشهادة تعرض الوانوعي لمسائل يبدو أنها فقهية، وقد وصفها بالشاذة جدا كان يقول بها ابن عشيظ، و يخالفه فيها الوانوعي، ذكرها في حضرة ابن باديس، و أصر ابن عشيظ على موقفه و رأيه (14)، و هو ما يدل على ثقته في نفسه و في علمه، و مما يعني أيضا أن الوانوعي لم يكن مجاملا في رسالته التي أشرنا إليها آنفا و التي يلتمس فيها من الحفناوي إدراج ابن عشيظ في ترجمته لسيدي احمد بن علي أهملول المجاجي، و في الأوصاف التي أطلقها عليه، فاختلافه في الرأي مع ابن عشيظ لم يمنعه من الإقرار بفضل الرجل و علمه.

كما يمكن لنا أن نستدل بمقولة أخرى لابن باديس في حق ابن عشيظ تدل على مكانته العلمية، وعلو أخلاقه: "إنني أعظمك و أحبك و لتلك المحبة أرغب منك أن تسكت عن هذه المسائل فلا تذكرها و لا تتحمل مسؤوليتها، فرأيت من حضرته انعطافا لقولي و قبولا له" (15).

فسكوته لا يعني أنه تراجع عن رأيه، بل قد يدل على أنه احترام للضيف، و تجنب للمسائل الخلافية التي قد تفسد المجلس، أو أنه اقتنع بأن الظرف ليس مناسباً لإبداء الإصرار على رأيه في تلك المسائل الموصوفة بالشاذة، والتي لم يفصح ابن باديس عن فحواها، وهو ما يدل على كرم في سجيته، وحسن في محاوراته.

و قد وصفه كل من عرفه بأوصاف العلماء العاملين، و على رأسها التواضع ، و أنه لا يخشى في الحق لومة لائم، فهذا الجليلي بن عبد الحكم صاحب المرأة الجليلة يقول عنه: " تفقه في مجاجة، حتى صارت له اليد الطولى في العلم و لا سيما علم التصوف، و له كرم مشهور لا ينكره إلا مكابر، و له محبة في أهل العلم يقر لهم بالفضل، و لا ينظر إلى من هم أصغر منه بالاحتقار، و إن حاول مسألة و لم يُفْتَح عليه فيها سأل عنها لتواضعه" (16).

و يذكر لنا بوعبد الله غلام الله أن الشيخ ابن عشيظ قد درّس الفقه و علوم الشريعة الإسلامية في زاوية سيدي عدة غلام الله في جبل محنون بتيارت، إذ تم الاستنجد به لتدريس أبناء الزاوية و من رغب من غيرهم فانتقل إلى هنالك، وكان على رأس تلامذته شيخ الزاوية نفسه محمد غلام الله، وكان ذلك قبل سنة 1912 وقد بقيت العلاقة وطيدة بين محمد غلام الله و ابن عشيظ و الصلة قائمة حتى بعد مغادرة هذا الأخير للزاوية (17) . و للتدليل على قيمة الرجل العلمية، و أن آل سيدي عدة غلام باستجلابهم إياه إلى زاويتهم قد حازوا خيراً عظيماً، و ظف الباحث - و هو من آل سيدي عدة غلام الله - عبارة :و قد صادفه الحظ، مع ما تحمله من دلالات تقوي ما ذهبنا إليه من التخريج.

كما تصدى المترجم له للتعليم في زاوية سيدي هني بمجاجة- و هو من نسل سيدي بن علي المجاجي أخ سيدي محمد- التي يصفها الحفناوي، بـ: " كبيرة القدر، الكثيرة البذر، يقصدها المتعلمون و المضطرون، و شهرتها تغني عن التعريف، ثم صار أمرها إلى ولده السيد محمد قاضي الناحية، و هو رجل صموت، و له جاه معتبر، و همة هامتها في الثريا، و ثروة لا تطاول، و لم يزل على قيد الحياة، و كان مدرستها قريبه علامتها الفقيه الشيخ محمد بن عشيظ، و فارقتها لعله لا محل لها من الإعراب هنا" (18). و يبدو أن العلة التي أعرض الحفناوي عن الحديث عنها، و رأى أنه لا محل لها من الإعراب هي خلافات بين أبناء العمومة، دفعت ابن عشيظ إلى مغادرة الزاوية.

ما يلاحظ مما تقدم أن الذين ترجموا لسيرة ابن عشيظ قد أغفلوا ضبط التواريخ، إذ إننا لا ندري متى التحق الشيخ بفاس؟ و متى عاد إلى مجاجة؟، و المدة التي مكثها مدرسا بزوايتها، فما هو ثابت لدينا فقط أنه رحل عن زاوية سيدي عدة سنة 1912 حسب تقييد بو عبد الله غلام الله.

أقام ابن عشيظ بعد رجوعه من زاوية سيدي عدة بتيارت بيتا للإفتاء بمدينة الشلف، إذ كانت ترد عليه الرسائل في المسائل الفقهية من مختلف مناطق البلاد، فكان يجيب عليها محررا فتاواه في رسائل(19)، و ما ينبغي الإشارة إليه ههنا أنه كان متطوعا بالفتوى، و لم يكن تابعا لأية جهة رسمية، و هذا ما نلمسه في وصف ابن باديس له بالشيخ العلامة، و للوانوغي بالشيخ المفتي، و الإمام بالجامع الكبير، بمعنى أن الإفتاء الرسمي التابع للسلطة الفرنسية كان يتم بالجامع الكبير، كما نلمس هذا في تقييد الحفناوي الذي وصف فيه الوانوغي بمفتي الأصناب(هكذا وردت بالباء)، مما يستشف منه أن الإفتاء كان وظيفة رسمية يقوم بها موظفون معينون من قبل السلطات الاستعمارية و قد يكونون من غير أبناء البلد كما هو الأمر مع الوانوغي.

و قيام ابن عشيظ بمهمة الإفتاء متطوعا يعزز الطرح الذي نتبناه من كون الشيخ كان يحظى بمصداقية علمية أهلته لأن يكون محل ثقة الناس، و أن عمله كان خالصا لوجه الله تعالى، لا يريد من ورائه جزاء و لا شكورا، و كذا استقلاليته في الرأي و عدم خضوعه إلا لسلطة الشرع. كما نفهم منه سر اختلافه مع الوانوغي في بعض المسائل الفقهية، فكل منهما يمثل وجهة نظر معينة و مرجعية تختلف عن الأخر.

لأجل هذه الخصال و غيرها خصه ابن عاشور الخنقي بمجموعة من الأبيات ضمن القصيدة المذكورة في مديح أعلام مجاجة نقتطف منها هذه الأبيات:

و الله ما قصة تحكى بحضرته\*\*\* إلا و أنشدها من حكمة العرب

أخلاقه درر أحواله غرر\*\*\* أقواله طرر في هامش الكتب

الفارس البطل الحامي الذمار و إن\*\*\* يئأ ابن عشيظ العالي الشهب(20).

ما ثبت لدينا هو أن الشيخ لم يخلف أثارا مكتوبة، عدا تلك الفتاوى الفقهية التي كان يجررها و يرسلها إلى سائله، و هي متفرقة على البيوتات، و هو ربما هذا ما دفع القائمين بأمر أحد المواقع الإلكترونية إلى تقريرهم بأن الشيخ خلف تآليف و مخطوطات عديدة(21).

**وفاته:**

تتفق الكتابات القليلة التي وضعت حول سيرة ابن عشيظ على أن وفاته كانت في ليلة الأربعاء التاسع من شوال سنة 1350 هـ الموافق لسنة 1931 م، عن عمر يناهز التسعين سنة، وقد دفن يوم الخميس صباحاً بضريح جده المشهور بالنخلة، وقد حضر جنازته جمع غفير من العلماء و من عامة الناس من مختلف المناطق المجاورة، وأنه قد صلى عليه إماما الحاج العربي بن شرقي (22).

و مما قاله الجيلاني بن عبد الحكم في الكلمة التأبينية، أثناء تشييع جنازته، مذكرا بفضائله رحمه الله، وتقديره للعلماء، والحظوة التي كانت له لدى الشيخ بن الشرقي: "و كان رحمه الله يتردد إلى زيارة الغوث الكامل السيد الحاج بن الشرقي رضي الله عنه، و كان إذا حضر انبسط الشيخ، و ظهر على وجهه السرور، وقال له أفئ علينا مما أفاء الله عليك، فيتألاً وجه الشيخ نورا، و يغوص تارة في بحر الشريعة، و تارة في بحر الحقيقة، و كان رحمه الله يصدع بالحق، و لا يخاف لومة لائم، و أما كرم الفقيه فلا يختلف فيه اثنان... و بالجملة بأنه عالم عامل شريف النفس و النسب، و كفى بشرفه أنه من شجرة القطب السيد محمد بن علي... عاش نحو التسعين سنة قضاه في أعمال البر فهو من أفراد قوله عليه الصلاة و السلام "خير الناس من طال عمره و حسن عمله" (23).

و قد خالف هذا الإجماع بشأن وفاته الحاج الطاهر قوادري محمد بشهادة خطية أثبتها أحدهم في كتاب له سماه "مشايخ خالدون و علماء عاملون"، إذ يقول فيها أن من شيوخ ابن عشيظ الميسوم المكنى "برقية" المولود سنة هـ 1237 بمنطقة عريب قرب عين الأشياخ المتوفى سنة 1300 هـ، المعروف بصاحب قصر البخاري، ثم يستطرد مواصلاً: "... و الشيخ عشيظ المجاجي خريج جامعة القرويين بفاس، توفي رحمه الله سنة 1341 هـ" (24).

و يبدو أن صاحب الشهادة قد وقع في السهو، مثلما وقع في سهو آخر في إحالته على الحفناوي، في الصفحة 179 من الجزء الثاني في الترجمة لسيدي محمد بن أحمد المراحی صاحب زاوية ثنية الحد، مع أن في الصفحة المذكورة ترجمة محمد بن أحمد بوتشنت. إذ كان على المؤلف أن ينتبه إلى مثل هذه الهفوات التي قد يكون العامل الرئيس فيه هو التقدم في السن لصاحب الشهادة، فمثل هذه الشهادات تقدر في مصداقية المعلومة المعروضة، و تجعلنا لا نطمئن إلى أن ابن عشيظ قد درس فعلا على الشيخ المذكور، و يتعزز هذا الشك أكثر عندما نجد أن هذه الشهادة هي الوحيدة التي أوردت اسم ذلك الشيخ ضمن قائمة من تتلمذ عليهم ابن عشيظ.

خلاصة:

بعد هذه الإطافة السريعة بين جوانب من سيرة الشيخ محمد بن عشيطة - رحمه الله تعالى - نخلص إلى أنه لم يحظ بالتدارس، و بقي مغمورا لدى الجيل الحالي، إذ الغرض من هذه الدراسة هو تجلية الجوانب الخفية من حياة الرجل، فما كتب عنه هو عبارة عن نتف مبثوثة هنا و هناك تحمل إشارات عابرة جاءت هكذا عرضا أثناء الترجمة لقطب أو علم من الأعلام في ثنايا كتاب، أو في مقال لغرض آخر، أو مما حفظته الذاكرة، و لم يجد بعد طريقه إلى دور الطباعة، فعلمنا أن نتداركه بالتدوين خصوصا أن العهد قد بدأ يتباعد بيننا و بين الشيخ.

و ما توصلنا إليه أكد لنا حقيقة واحدة و هي أن حياة الرجل مازالت في حاجة إلى بحث و استكشاف، و عليه فإننا نلتمس من عائلة الشيخ، و كل من يمتلك أثرا من أعماله أن يدلنا عليه، و ييسر لنا الاطلاع عليه حتى يتسنى لنا معرفة فكره من خلال أعماله لا عبر ما قيل عنه، مما يعثره الزيادة و النقصان.

#### الهوامش:

\* وجدنا في بعض الكتابات من يسم القصيدة بـ" طراز الديباجة المعجولة في محاسن مجاجة"، و بما أن لكل من المعجولة و المجعولة تحريجات مقبولة دلاليا اكتفينا بالإشارة دون التنبئ لأي من الوجهين، ما دمنا لم نطلع على الأصل.

- 1- عن د. خالد بوشمة. زاوية مجاجة و دورها العلمي و الجهادي. رسالة المسجد. ص 71. السنة 5. ع 2. شعبان 1428/ أوت 2007.
- 2- أبو القاسم الحفناوي. تعريف الخلف برجال السلف. ص 288. ج 2. موفم للنشر. الجزائر. 1991.
- 3- ينظر: الشيخ حاج هني علي. الأحرف الوهاجة في ذكر شرفاء مجاجة. ص 28-29. مطبعة ميهوبي. بومرداس. الجزائر. 2004.
- 4- ينظر : ينظر: بليل حسني- باحث في قسم المخطوطات بمعهد الحضارة الإسلامية بوهرا- العلامة محمد بن عشيطة 1841-1931 و موقع الشيخ الجيلالي الفارسي للتعريف بأعلام و تاريخ ولاية شلف.

<http://boudali02.googlepages.com/home>

- 5- ينظر: الشيخ الجيلالي بن عبد الحكم. المرأة الجليلة في ضبط ما تفرق من أولاد سيدنا يحيى بن صفية. ص 202. مطبعة ابن خلدون. تلمسان. الجزائر. 1953.

6- نفسه. ص 202.

7- نفسه. ص 202.

8- نفسه. ص 202.

- 9- د. بوعبد الله غلام الله. نظرة على التعليم الأهلي في سهل الشلف خلال النصف الأول من القرن العشرين. ص 33. مجلة اللغة العربية. عدد ممتاز عن العربية من محنة الكولونيالية إلى إشراقة الثورة التحريرية. شتاء 2005. الجزائر.

10- ينظر: بليل حسني. مرجع مذكور.

11- أبو القاسم الحفناوي. تعريف الخلف برجال السلف. مصدر مذكور. ص 289. ج 2.

12- د. عمار طالي. ابن باديس حياته و آثاره- جمع و دراسة- ص 309-310. ج 4. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان.

- 13- نفسه.ص309 .
- 14- نفسه.ص310.
- 15- نفسه.ص310.
- 16- الشيخ الجيلاني بن عبد الحكم.مصدر مذكور.ص202.
- 17- ينظر:د.بوعبد الله غلام الله.نظرة على التعليم الأهلي في سهل الشلف.مرجع مذكور.ص33.
- 18- أبو القاسم الحفناوي.تعريف الخلف برجال السلف.ص275 .ج1. مصدر مذكور.
- 19- ينظر:بليل حسني. مرجع مذكور.
- 20- نفسه.
- 21- ينظر : بليل حسني. مرجع مذكور.و موقع الشيخ الجيلالي الفارسي للتعريف بأعلام و تاريخ ولاية شلف.  
<http://boudali02.googlepages.com/home>
- 22- ينظر: الشيخ الجيلاني بن عبد الحكم.مصدر مذكور.ص203.
- 23- نفسه.ص203.
- 24- محمد بن اسماعيلي.مشايخ خالدون و علماء عاملون.ص130-131-132.مطبعة الكاهنة.ط2.الدويرة.الجزائر

إعداد: خاين محمد